ملـــحــقّ الـعـــدد[1]

يشتمل على المباحث النّقديّة:

- نقد الكتب والمقالات
- نقد النّقد
- الترجمة
- التّقرير
- الحوار و...

١. غير محكّمة

بحوث في الأدب المقارن (فصليّة علميّة – محكّمة)
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة رازي، كرمانشاه
السّنة السّابعة، العدد ٢٥، ربيع ١٣٩٦ هـ. ش/ ١٤٣٨ هـ. ق/ ٢٠١٧ م، صص ١٦٥-١٦٨
(ملحقّ العدد: غير محكّمة)

أغاني شيراز وأصداؤها في الأدب العربي

حين نشر أستاذنا الدّكتور إبراهيم الشّورابي – رحمة الله عليه – ترجمته الرّائعة لغزليّات حافظ الشّيرازي جعل لها عنواناً موحياً دالّاً على ما كان يهدف إليه من نشر هذه التّرجمة في ذلك الوقت بالذّات وهو «*أغاني شيراز*».

ففي عام ١٩٤٤ – الّذي نشر فيه الجزء الأوّل من التّرجمة كانت نتيجة الحرب العالميّة الثّانية قد حسمت لصالح أحد طرفي الحرب – وهم الحلفاء، وفي العام التّالي حين نشر الجزء الثّاني من التّرجمة كانت الحرب توشك أن تضع أوزارها وتتخلّص البشريّة من ويلاتها، وبدا المجتمع الإنساني كلّه والمجتمع المصري بخاصّة، بحاجة إلى من يخرجه من ذلك الجوّ الثّقيل والحياة الكئيبة الصّاخبة الّتي فرضتها الحرب عليه، خاصّة وأنّ مصر لم يكن لها فيها ناقة ولا جمل، وإنّما دفعت إليها دفعا فذاقت ويلاتها وتجرّعت كأسها المرير إلى آخر قطرة.

كان الدّكتور الشّورابي قد شعر حين استعرت الحرب وألقت بجرانها على العالم كلّه، وأصابت النّاس بالكآبة واليأس أنّه يملك عصا سحريّة يمكنها أن تخفّف من آلام النّاس وعذاباتهم وأن تكفكف من دموعهم، عصا يمكنها أن تنقلهم إلى جوّ طليق مليء بالبشر والتّفاؤل والإيناس، فهو يملك ترجمة رائعة ومكتملة لغزليّات الشّاعر الفارسي الكبير حافظ الشّيرازي، كان قد أتمّها حين شرع في إعداد رسالته الّتي نال بها درجة الدّكتوراه من جامعة فؤاد الأوّل.

كان الشّاعر الكبير – الّذي يعدّ واحدا من أئمّة الشّعر الفارسي – يعيش في القرن الثّامن الهجري (الرّابع عشر الميلادي) في جوّ تملؤه الحروب والمحن، ولكنّه استطاع أن ينأى بنفسه عن ذلك كلّه، وأن ينظم أشعار ليست في الواقع إلّا غناء عذباً لا تكدّره شوائب القلق، ولا تفسده هموم الحياة وإنّما يثير التّفاؤل والأمل والثّقة في نفس الإنسان.

لقد وجد الدّكتور إبراهيم أمين في هذه الأغاني بلسما يشفي النّفوس ويطبّب بعد أن أصابها ما أصابها من ويلات الحروب، ويرفع من شأن الإنسان بعد أن أدركه الذّل والتّحقير والهوان. فسعى الدّكتور الشّورابي سعياً حثيثاً لطبع هذه الأغاني في جزءين تقرب صفحاتهما من ستمائة صفحة. ولم يكن طبع الكتب في تلك الأيام بالشّيء السّهل لأنّ الورق كما يقول الدّكتور طه حسين في مقدّمة *أغاني شيراز* «نادر مرتفع الثّمن... والعلماء في جميع أقطار الأرض وفي مصر خاصّة لا يملكون من المال ما يمكّنهم من نشر ما ينتجون في مثل هذه الأوقات العصيبة» و مع ذلك طبعت هذه التّرجمة وقدمت إلى القرّاء.

علينا الآن أن نرى أثر هذه الأغاني في كبار أدباء العرب في ذلك الحين. كانت الحياة الأدبيّة في مصر في ذلك الوقت وقبله يتنازعها اتّجاهان: اتّجاه يرى أنّ الأدب العربي بتاريخه الطّويل وتراثه العتيد مستغن بنفسه، ليس بحاجة إلى مدد أو زاد من الآداب الأخرى. وكان أصحاب هذا الاتّجاه يرون أيّ محاولة لتحقيق التّواصل بين أدبنا العربي والآداب الأخرى عبثا لا طائل من ورائه

ومضيعة للوقت الجهد، بل وإفساد للذّوق العربي الأصيل. أمّا الاتّجاه الثانى فيرى على العكس من ذلک أنّ الحياة العقليّة أخذ وعطاء، وأنّ الأدب العربي لم يعرف العزلة والاستغناء بالنّفس إلّا في أوقات الضّعف والانحطاط، أمّا في أوقات القوّة والرّقى فقد كان يأخذ ويعطي، كما كان يفعل في أيّام العباسيين. وإنّ زعيم هذا الاتّجاه الثّاني الدّكتور طه حسين.

الدّكتور طه حسين

ولا شکّ أنّ الدّكتور طه حسين كان أكثر النّاس ابتهاجاً بالنّجاح الكبير الّذي حقّقه أحد تلامذته المخلصين: الدّكتور الشّورابي في ترجمة غزليات حافظ الشّيرازي. ويعرب الدّكتور طه عن ذلک في قوله في المقدّمة الّتي كتبها للتّرجمة أقدم الآن هذه التّرجمة وفي نفسي كثير جدّاً من الغبطة وكثير جدّاً من الرّضا وكثير من الأمل بل كثير جدا من الثّقة... إلخ» وإذا نحن عمدنا إلى تصفّح هذه المقدّمة المهمّة الّتي كتبها الدّكتور طه حسين لكتاب *أغاني شيراز* نجد أنّ هناک العديد من الأسباب الّتي تبعث فيه كلّ هذا الرّضا والأمل والثّقة. فهناک أسباب ترجع إلى التّرجمة نفسها، فهي «طرفة نفيسة رائعة سوف تمتّع قرّاء العربيّة من جهة وتزيد من ثروة الأدب العربي من جهة أخرى.» وهناک أسباب أخرى ترجع إلى تأثير هذه التّرجمة في الأدب العربي نفسه بما يحقّق له النّجاح والازدهار، فلا شکّ أنّها سوف تثير في نفوس كثير من قرّاء العرب «ألوانا من التّفكير المنتج وفنوناً من الشّعور الخصب، وتفتح لهم أبواباً في الحسّ والشّعور التّفكير لم تفتح لهم من قبل» وتشجعهم على ترجمة روائع الآداب الأجنبيّة.

وربّما كان أهمّ الأسباب الّتي جعلت الدّكتور طه حسين يغتبط كلّ هذا الاغتباط بصدور الأغاني هو نجاح خطّته في حثّ النّاس على العناية بما بين الأدبين العربي والفارسي من وشائج قوية. ومن الواضح أنّ الدّكتور طه كان ينتظر صدور هذه الأعمال الكبيرة لكى يردّ على خصومه الّذين اتّهمّوه بإفساد الذّوق الأدبي العربي بتشجيع شباب الباحثين على ترجمة روائع الآداب الأخرى بهدف إغناء الأدب العربي وزيادة ثروته. ولكن هؤلاء الخصوم باتوا الآن غير قادرين – كما يقول الدّكتور طه نفسه – على أن يجحدوا حقيقة واقعة وهى أنّ «شباب كلّيّة الآداب في جامعة فؤاد الأوّل قد أهدوا إلى اللّغة العربيّة في أقلّ من عشرين سنة *الشّاهنامه* للفردوسى و *ديوان حافظ الشّيرازي* و آثارا أخرى كثيرة... إلخ»

سيّد قطب

وفي فبراير سنة ١٩٤٦ نشرت «مجلّة الكاتب» مقالاً مفصّلاً للشّيخ سيّد قطب – رحمه الله – بعنوان: *أغاني شيراز*، نظم حافظ الشّيرازي وترجمة الدّكتور أمين الشّورابى. وقد عبّر الشّيخ في مستهلّ مقاله عن شكره الجزيل للمترجم الّذي أتاح له «هذه السّاعات الحلوة الّتي لا تقدر بثمن ونقله إلى جوّ طليق رفّاف، تشيع فيه الأنداء والأضواء، وترفّ فيه الأنسام والأصداء... إلخ.»

ثم يشير إلى نبوءة الدّكتور طه حسين بأنّ الأدباء الشّباب سينتفعون بهذه الأغاني كلّ الانتفاع، فيرى الشّيخ أنّها نبوءة صادقة صحيحة فلو خُلى بين الأدباء الشّبان وهذه المجموعة من شعر حافظ أفادوا بها فائدة جليّة، ولكن «قلّة النّسخ المطبوعة منها، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشّبان قد يجعلان الانتفاع بها محدوداً في الوقت الّذي يجب أن تكون في متناول الأيدى جميعاً.»

ويرى الأستاذ سيّد قطب أنّ هذه الأغاني قد جاءت في وقتها المناسب، فالشّعر العربي يعانى أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزّاد بعد أن «طوح الشّعر بنفسه في مجال الفلسفة وفي لجج الفكر، كما طوح بنفسه في مجال القصّة والمسرحيّة وما إليها بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصّة والمسرحيّة وما إليها بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصّة ولا المسرحيّة الشّعريّة.»

وقد أدّى ذلک كلّه إلى أزمة لزمت الشّعر الحديث جعلته يقف حيث لا يجوز الوقوف. «فقد قصت من أجنحة المرفوقة،وغضت من غنائيته النّغمة، وأقلت فيه من السّبحات والومضات، وجعلت عنصر الوعي الفكري بارزاً فيه».

فلقد آن الأوان –كما يقول الأستاذ سيّد قطب – «لتنحسر الموجة الفكريّة الفلسفيّة، تاركة للشّعر غنائيّة وبساطته ورفرفته، كيما يتأدى. إلى الحس بأشواقه وأحلامه، وبصورة وظلاله مثلما تتأدى الموسيقى الطّليقة، والصّورة الفنّيّة الموحية...إلخ.» لقد جاءت *أغاني شيراز* في رأى الشّيخ سيّد قطب لتساعد على انحسار الموجة الفكريّة عن الشّعر الحديث وتزيد من رصيد الغناء في الشّعر العربي زيادة لها قيمتها، وحسبها أنّها تجعل الشّعر «غناء خالصاً لا تبهظه» أثقال الفلسفة...ولا تبرده ثلوج الفكر».

المزيّة الثّانية: أنّ قارئ هذه الأغاني يستروح فيها عطر الشّرق، وبساطته ومرحه وغيبيته وتصوّفه، ونحن بحاجة الآن كما يقول الشّيخ سيّد قطب إلى هذه الأغاني لكى تعيننا على الوقوف في وجه الموجة العقليّة الغربيّة الطاغية، لأنّها إنّما تعبر تعبيراً أصيلاً عن الرّصيد الشّرقي الموروث الّذي يستطيع أن يسعفنا ويحفظ اتزاننا الشّعورى في وجه التّيار.

وينبّهنا الشّيخ سيّد قطب إلى حقيقة بالغة الأهمّيّة والقيمة حول تأثّر حافظ الشّيرازي نفسه بالأدب العربي وبخاصّة مذهب البديعيين العرب في القرن الثّامن الهجري، وهو القرن الّذي عاش فيه حافظ.

وأنا اعتقد أنّ حافظاً نفسه كان قارئاً بل ناقداً للشّعر العربي في ذلک العصر، فقد عثرت على مخطوطة فارسيّة بدار الكتب المصريّة تشتمل على رسالة كتبها حافظ الشّيرازي في التّعليق على قصيدة البردة في مدح النّبي (ص) للإمام البوصيري، وكان من كبار شعراء البديع في العصر المملوكي في مصر. ويُبدي حافظ إعجابه الشّديد بالقصيدة، الأمر الّذي يوحى بأنّه قد تأثّر بهذا المذهب بالفعل، وأنّ هذا التّأثير قد ظهر في أشعار كما يظهر من كلمات الشّيخ سيّد قطب. ويأخذنا الشّيخ في جولة في *أغاني شيراز* ويبيّن أّن التكرار عند حافظ لا يجعل الإنسان يشعر بالملل أو السّأم، كما يبين أنّ حافظاً «درويش» يوزع الكلمات والإشارات والإيماءات وليست هناک رابطة ظاهرة تربط بينها وإنّما تربطها في الباطن رؤى هذا الدّرويش المتصوّف، هي رؤى من وراء الغيب فيرمز لها ولا يبين، ولكن لها وقعاً. جميلاً في النّفس. ويختار الشّيخ بعض الغزليّات الّتي تصوّر ما يعنيه.

ويقارن الشّيخ بين المعنى عند كل من حافظ والخيام فيبيّن ما ينطوي عليه شعر الخيّام من لهفة محرقة، وأسى عميق ومعنى نفسي ضخم، وما ينطوي عليه شعر حافظ من تفاؤل واستبشار، ومن نشوة بجمال الطّبيعة وبجمال الوجوه الحسان، فالدّنيا ربيع دائم، وحتّى الألم والأنين، يقول حافظ: يا ربّ لا تجعل العالم خالياً من أنين العاشقين، فأصداء أنينهم بهجة حسنة التّرجيع والتّلحين.

ويعرض الأستاذ سيّد قطب لرأي كان قد كتبه المرحوم الدّكتور عبد الوهّاب عزام في كتاب *قصّة الأدب في العالم* عن غلبة التّشاؤم على حافظ الشّيرازي، فبين أنّ قارئ الغزليّات يعنّ له أن يخالف الدّكتور عزام في هذا الرّأى، فالقارئ يرى حافظاً هادئاً مستبشراً، مشغولاً عن الحقد والألم بالسّبحات الصّوفية والفتوح النّفسيّة الرّبّانيّة واستجلاء الحسن والجمال. ويأتى الشّيخ سيّد قطب في نهاية مقاله المستفيض عن *أغاني شيراز* فيثير قضيّة خلافية بين رأيين حول شعر حافظ أحدهما للدّكتور عزام والآخر للدّكتور الشّواربي. ويقتبس الشّيخ من الدّكتور عزام قوله «وعابر ديوان حافظ كالسائر في حديقة ورد، تروعة الصّور الكثيرة و الألوان المختلفة ولكنّها كلّها ورد. فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة، أو هو كالمطرب يسمعک كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام، ولكنّها لا تعدو حديث الحبيب في جماله، وصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه، وكلّ ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع، وكأنّ كلّ قطعة – بإحسان التّعبير وإجادة التّصوير – تتضمّن معاني جديدة لم تتناولها قطعة قبلها».

ثمّ يقتبس قول الدّكتور الشّواربي عن طريقه الأداء عند حافظ «كان شاعراً عاتيا، فلم يكن يأبه لشيء، ولم يكن يهتمّ بشيء... كان يعلم أنّ أقواله تفتن الجماهير، ولكن ذلك لم يشغله إلّا بقدر يسير. وكان يعرف أّن أشعاره تفتن الألباب ولكنّه لم يكن يهتمّ بهذا الإعجاب، بل كان يمضي في طريقة كالجيش اللجب، يطوى بيداء الحقب، في أناة أو صخب... وكان فنّاناً، فكأن يرضى نفسه قبل كلّ شيء... إلخ».

ويعقب الشّيخ سيّد قطب على الرّأيين بأنّه يميل إلى رأي الدّكتور عزام، ويغلب عليه الظّن أنّ التّوفيق هنا لم يحالف الدّكتور إبراهيم أمين. والواقع إنّني لا أكاد أجد اختلافاً ظاهراً بين الرّأيين، وإنّما كلّ منهما يكمل الآخر، فقد كان حافظ عند الدّكتور عزام – كما كان عند الدّكتور الشّواربي – شاعراً فنّاناً قل من يسايره في إحكام السّبک ورقة النّسج وإجادة النّظم، وأنّه عبر عن سروره وتفاؤله كما عبر عن حزنه وتشاؤمه. ولكنّنى أكاد أرجح أنّ الشّيخ عمد إلى تأويل الرّأيين لكي يجعل الدّكتور عزام يقف إلى جانب مظاهر الجمال عند حافظ ولا يرى منه إلّا روحه الحلوة، لا يرى مع حافظ في حديثة الورد الّتي يراه مقيماً بها لا يبرحها – لا يرى معه فيها إلّا كأساً من الخمر، ووجها جميلاً، ورفاقاً مسعدين، وطبيعة باسمة، وعلى الدّنيا السّلام. كما أوّل الشّيخ تفسير الدّكتور الشّواربي عن طريقة الأداء عند حافظ، فجعل الشّواربي يقف إلى جانب مظاهر الجلال والقهر، والقوّة.

نعم، كان الدّكتور الشّواربي يعلى من شأن معاني القوّة والجلال عند حافظ، ويبيّن أنّ الشّاعر الكبير لا ينبغى أن يؤخذ السّهل أو ينظر إليه على أنّه رجل لا يهتمّ إلّا بجمال الطّبيعة وجمال الحبيب وما يجري على نفسه هو في أحوال الوصل والهجر والقرب والبعد والرّضا والغضب، وأنّ معانية لم تقف عند هذا الحد السّاذج البسيط وإنّما تعدت ذلک إلى بث. الأمل وإحياء الأماني في نفوس النّاس؛ يصف الدّكتور الشّواربي فلسفة حافظ بقوله في مقدمة *أغاني شيراز* (ص ٨) «الحياة عنده تفيض ولا تغيض، تنقد ولا تخبو، تزدهر ولا تذوى، روضة مورقة لن يصيبها ذبول، وشمس متألّقه ليس لها أفول، وصباح باسم جماله لا يزول» وكأنّي بالدّكتور الشّواربي يقول ما قاله الشّاعر الألماني جوته في حافظ الشّيرازي:

أنت يا «حافظ» لا تؤذن بانتهاء، وهذه عظمتک

ولا عهد لک بابتداء، وهذه قسمتک

إنّک نبع الشّعر الّذي يصل بالأمانى إلى الأوج

فإذا هى فيض في إثر فيض، وموج في أثر موج

ومهما يكن من أمر، فإنّ الشّيخ سيّد قطب قد تمسک من الأغاني بالجانب الهادئ الوضيءالمرفرف، وهو الجانب الّذي صرح الشّيخ منذ بداية مقاله أنّه أراحه من كآبة الأيّام وثقل الحياة في زمن الحرب، وضرب صفحاً عن جانب الجلال والقوّة والاعتداد بالنّفس الّذي تنطوي عليه بعض الغزليّات. ولكنّه ختم قوله بأنّه يوجه للدّكتور إبراهيم أمين ثناءه المطلق وشكره الجزيل بالنّيابة عن قراء العربيّة. أمّا عن تأثير *أغاني شيراز* بعد صدورها في الشّعر العربي بخاصّة، والأدب العربي بعامّة فهو أمر يحتاج إلى بحث آخر نرجو أن نقوم بإتمامه في وقت قريب إن شاء الله تعالى.

محمّد السّعيد جمال الدّين*

الأستاذ بجامعة عين شمس

*. العنوان الإلكتروني: M_S_gamdin@hotmail.com

English Abstracts